المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

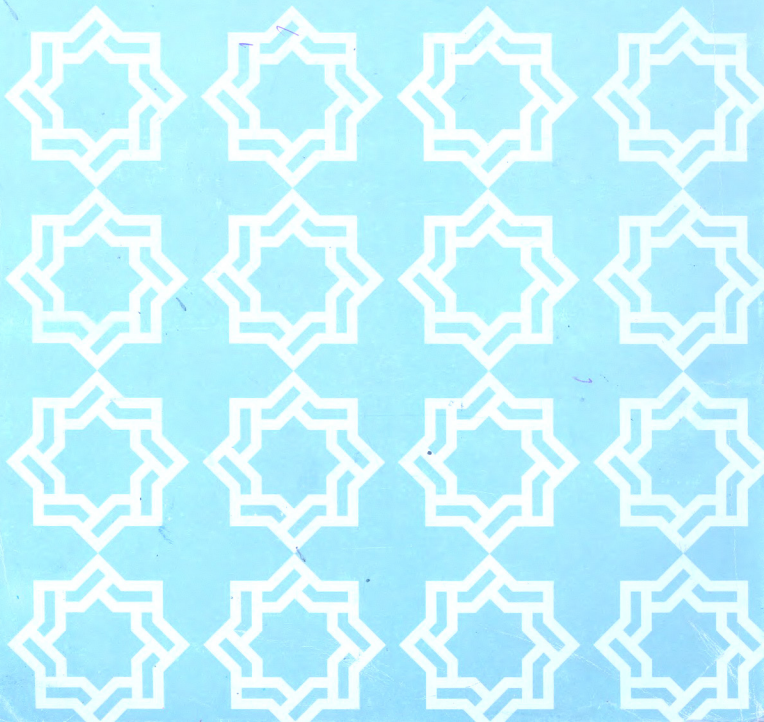

شعر الهجاء: قبول أم رفض

عبدالله عبدالرزاق

تمهيد

يرفض الكثير من قرّاء الشعر هذا اللون منه ـ أعني الهجاء ، ومطالعته لا تتعدى الدراسات التخصصيّة أو الاكاديميّة في محاولة لدراسة أيّ شاعر ، ورصد اتجاهاته الشعرية ، والتعرّف على الشيء الكثير لشخصيته من خلاله ، وهو في الحالة هذه مجرد ظاهرة تاريخية ـ في اكثر الاحيان ـ ترفد الدارس بدون نضوب بما يحتاج ليكمل مادته التاريخيّة ، ولعل القارىء معذورٌ أحياناً ان أعرض عن هذا اللون من الشعر ونأى عنه بجانبه ، اذ أنه حين يتتبعه لا يجد على الاغلب الاّ عنصرين متنافرين يشكلان وحدة القصيدة ومضمونها ، أحدُ هذين العنصرين قد فَقَدَ حسَّ الاتزان منطلقاً من ذات قد تبعد صاحبها عن حَقيقته شيئاً كثيراً ، لتخلق منه انساناً فقد زمام نفسه وتوهّج ـ داخلياً ـ في ثورة مدمّرة تلتهم ما ينسرب أمامها بدون تحفظ ، وقد يكون هذا التوهج داخلياً صرفاً اتخذ سبيل الهدوء بذكاء وحكمة نادرتين كما سنرى ،، أما الآخر ، فهو انسان مجروح في شخصه ومثلوم في مجتمعه البدوي أو الحضري ، ويمثله المهجوّ ، لذا يسقط في نظر القارىء قبل أن يقرأه لأنه يعدم أن يجد فيه مايرفع قيماً مطمورة أو يجلو عاطفة ما ، لانه كذلك لا يني يجد ثمة سوى شخصية هي الغالبة ، تتهاوى أمامها شخصية مغلوبة ، فالتكافؤ هنا يكاد ان يكون معدوماً غالباً وحتى في النقائض كما سنرى ، يسقط عنصر التكافؤ سقوطاً بيّناً ، اذ كثيراً ما يحاول الشاعران المتهاجيان اختراع قيم واخلاقيات قد قد يفتقران اليها في محاولة يائسة للأرتقاء الى سلم التكافؤ .

وما يأتي ، محاولة موجزة لدراسة هذاالفن من كل جوانبه واستخلاص ما فيه من جدة وأصالة وابعاد ما يشوبه من عيب أو غضاضة .

نشأة الهجاء في الشعر العربي

يكثر الهجاء في الشعر العربي كثرة مفرطة تتنوع درجاتها من حيث القوة والضعف في فترات متقطّعة ، ونحن اذا حاولنا أن نرصد ما لدى الشعراء الغربيين مثلاً من هذا النوع من الشعر وقابلناه وجهاً لوجه أمام ما لدينا وجدنا أن الكثرة هي الغالبة عندنا ، ومعرفة السبب انما يعود الى القاء نظرة سريعة الى طبيعة الشخصية العربية القديمة ، وسط محيطها والذي نعرفه جيداً أنّ العربي القديم ـ عاش في الصحراء في مجتمعات صغيرة لم تؤهله تلك الصحراء

لان يكوّن مجتمعاً مستقراً يعمل على تطوره ونمائه فالصحراء تفقد الشخصية الانسانية عنصر الارتباط لانّها كائن أبكم مفقود الحسّ لا حدّ لحدوده ، ولصمته ، فالصحراء تضطر الشخصية الانسانية الى ما يوجد لها الحماية والأرتباط ، ووجدته تبعاً لذلك في القبيلة فتلتحم فيها التحاماً عضوياً يكاد يُذيبها في كيانها ، وشدة ترامي الصحـــراء وتباعدها وعدم توفيرها لمناخ الاستقرار واجوائه أدّى بالطبع الى تنوع القبائل وتوزعها بكثرة شديدة ، ولقد كان من الطبيعي أن يتبلور العداء بين القبائل متخذاً شكل الغزو ، بسبب هذا التنوّع ونتيجة لافتقار عوامل الامن والطمأنينة في الصحراء وانعـدام ما يحفظ الشخصية الانسانية من العدم بتوفير ما تحتاجه من قوت ، كما لا يمكن أن نغفل ما جُبلت عليه الشخصية البدوية من عزة وكبرياء ورفض تام لكل هوان ، كل هذه الظواهر يمكنها أن تفسر لنا مبررات الكثرة في الهجاء .

والهجاء البدوي هجاء ملتزم ، اعني أن الشاعر لا يخرج به عن نطاق قبيلته كما أن مادة الهجاء لا تكاد تتخطّى القيم أو المثل التي يدين بها المجتمـع البدوي ، ويمكننا أن نقول باطمئنان أن هذا اللون من الهجاء رغم افتقاره ـ كما سنرى ـ للنواحي الفنية والجمالية ، التى رأيناها لدى الهجائين في العصـر الأموي والعباسي ، الا أنه محبب وقريب ، فالبدوي يأنف أن يهجو بما يخجل وينفر ، وهو يعرض باباء عمّا في شخصية المهجو من عيوب خلقية أو أخلاقية لا تخرج عن دائرته الشخصيّة ، وانما يتوجّه اليها عن طريق ارتباطها بالقبيلة فهو لا ينظر الى شخصية المهجوّ مجردة وانما يجدها ملتحمة بكيان القبيلة ، ولنا في هجاء الحطيئة في الجاهلية والاسلام مثـــل واضح . والغريب في الأمر أن الهجاء الجاهلي قليل لا يقاس بالهجاء في العصرين الأمـوي والعباسي ، ومرجع ذلك يعود لبعض الأسباب منها افتقار القصيدة العربية الى الوحدة العضوية وتشابك الفخر بالهجاء وانعدام الهجاء الشخصي والاجواء المساعدة له لا كما رأينا في العصر الأموي والعصر العباسي بالاضافة الى قوة الشخصية البدوية وافتقارها الى عنصر الضمور ومثل هذا الضمور تبلور في العصر العباسي ـ كما سنرى ـ لانعدام التكافؤ الشخصي .

الهجاء القبلي والهجاء الشخصي

يمكننا أن نقول بأن الهجاء القبلي ـ وحـده ـ يعطينا الكثير من القيم المجتمعية التي قد نفتقر اليها ، وهو يشكل لنا نموذجاً فريداً لظاهرة الالتزام والدفاع عن القيم والعرف العربي القديم ، وهو يقترب هنـا اقتراباً بيّناً من عناصر العقيدة ومنافحة العربي عنها وحمله للوائها بتجرد ، ودفاعه عنها بحرارة ، وباحثاً عما يرفع عنها من نقد ويمثل ذلك الهجاء الاسلامي والجاهلي في اكثره ، ففي العصر الاسلامي رأينـا الشعراء المسلمين زمن الرسول الاعظم (ص) يقفون بثبات حاملين لواء الدين الحنيف بالسنتهم كما حملوه في قلوبهم يدافعون عنه ويردون عنه كيد المشركين من شعرائهم ، ومادة الهجاء في كلا العصرين انما هي واحدة الا وهي الدفاع عن قيم وعقائد معينة .

أما الهجاء الشخصي فهو نموذج حيّ لانعدام الثقة في الكل الا مَعَ الذات وهو نتيجة منطقيّـة لانفصام الفرد عن الكل أو المجموع ، لقد رأينا أنّ الهجاء القبلي وجد له أرضاً خصبة في العصر الجاهلي لارتباط البدوي بقبيلته كما وجدناه في درجة رفيعـة من السمو في بداية العصر الاسلامي لارتباط الشعراء المسلمين بكيان هو أعم وأشمل من الكيان الصغير الذي مثّلته القبيلة في الجاهلية ، ولقد كان من المتوقع أن نجد نظير هذا اللون في العصر الأموي أو العباسي ولكننا وجدنا الشعراء في العصر الاموي يتأرجحون

بين الدفاع عن القبيلة التي لم تبق منها سوى ذكرياتها في الجاهلية بعد أن احتواها الاسلام في كيانه الشمولي ، وبين الدفاع عن الذات الصرفة ، وهذا الموقف القلق انما يمثل لنا نموذجاً لحنين قديم في نفس العربي الى الماضي ، ولقد كان لتشجيع أولي الأمر من الأمويين كما نعلم دور بارز في بلورة هذه الظاهرة في محاولة منهم لابقاء سلطانهم في قمة عالية يشرفون منها على هذه الصراعات دون أن تستطيع هذه القبائل بافرادها وبصراعاتها أن ترقى اليها ، ويمكننا أن نقول بأن الوازع الديني قد بدأ يضعف لدى هؤلاء فتحللوا عن الدفاع عن الدين ، وبدأوا يمهدون الطريق لهجاء آخر متفرد في سماته وخصائصه ، وهو نتيجة حتمية لانفصال الجماعة التي ألفها الدين الاسلامي وتوزعها اللامحدد في أبعاد شاسعة ، ضامنة لنفسها الاستقرار ، وضعف الشعور الديني وانشغال الفرد في توفير قوته اليومي وارهاقه في الحصول عليه بعد أن بدأت بوادر الطبقية تأخذ مكانها ولاسيما في العصر العباسي ، ولا يمكن أن ننسى ما خلفه ضعف الشعور الديني من الالتفات الى واجب الزكاة ومن اهمال لذوي الحاجات .

وهكذا وجد الشعراء أنفسهم في مجتمع لا تحميه فيه سلطة دينية محضة وانما سلطة هي مزيج من الدينية والدنيوية في نسيج متشابك غامض يعجز عن التمييز بينهما ، لذا وقع على كاهله عبء ضخم هو توفير الحماية لنفسه بنفسه ولم يعد له من سبيل الا لسانه أو قلمه ، وثمة دليل بسيط يمكن أن يؤيد وجهة نظرنا اذا ما تأملنا بعض شعراء النقائض فجرير حينما يقول عنه خصمه الفرزدق : (..والله لو تركوه لابكى العجوز على شبابها والشابة على أحبابها ، ولكنهم هروه فوجدوه عند الهراش نابحاً وعند الجراء قارحاً) انما يجد نفسه مضطراً للدفاع عن نفسه في مجتمع أولو الشأن لا يحمونه وانما العكس هو الصحيح اذ يحرضونه كما يحرضون غيره عليه ، مضحياً بقدراته الشعرية في هذه المعركة التي كتب لها ألا تنتهي الا بموته ..

الابعاد الفنية للهجاء الشخصي

لقد وجد الشاعر الآن نفسه في وضع متفرد جديد لم يألفه اسلافه بهذا الشكل ، فتحة حرية تملأ عليه نفسه وتفيض ، يستطيع أن يقول ما يشاء دون خوف أو حياء لذا فان ما يقع في ايدينا من هذا اللون من الهجاء انما هو وليد الحرية والتفرد والعزلة ، لذا كان من الصعب أن يتخذ له وجهة محددة ، منضغطة تحت عامل واحد ، ومعطية نتيجة واحدة فهو من هذه الناحية يختلف اختلافاً شديداً عن الهجاء القبلي ، لذا فان الشعراء الهجائين وقعوا تحت مؤثرين اثنين سيحددان كما نرى القيم الفنية للهجاء الشخصي ، أولهما مؤثر اللحظة الغاضبة العمياء التي تستفز حاملها بعنف فتغلق عينيه عن التأمل في المهجو بأبعاد تنضم اليها عناصر ترفدها بالعطاء الشعري الذي يحتوي على الاشارة الموحية والصورة الجميلة والمعنى المعبر في اطار من التأثير الشعري يبلغ ذروته ، فلا ينزلق عن هذا المؤثر الا عاطفة عنيفة مدمرة فقدت توازنها ، ولم يعد يعنيها سوى توجيه ضربات للمهجو مستعينة بكل ما يوفره اللفظ من ايقاع وحرارة وبكل ما تفجره العاطفة من اندفاع وطيش ، لذا كان من الصعب بمكان ، أن تتلمس شيئاً من الجوانب الفنية في هذا اللون من الهجاء الشخصي ، بل نستطيع أن نقول بثقة أنه معدوم كلياً من كل هذه الجوانب ويكفينا أن نقرأ شيئاً من هجاء جرير والفرزدق وبشار والبحتري والمتنبي .. الخ .. فستبدو قصائدهم مشحونة بكلام لا يجمع الا ألفاظ التجريح والقذف بشكل مثير .

ولسنا هنا نريد أن نفسّر آراءنا ونحلّلها وفق منعطف خُلُقي ، فذلك أبعد ما نفكر فيه ، لان الرأي المتعارف عليه أن القصيدة الجيدة تفرض نفسها بغض النظر عن طبيعة المحتوى الذي تتناوله ، ولكم كان يغبطنا لو وجدنا تلك القصائد تنهج رغم مضمونها السلبي نهْج القصائد الناجحة بكل ما يحمل هذا المصطلح من جوانب مدركة ومفهومة ، اذنْ لأُثريَ الشعر الهجائي بابعاد غنيّة في العمق والأصالة ، ولكن لا شيء من ذلك أبداً ، ومما يؤسف له حقاً ، أننا نجد أنّ هذا اللونَ من الهجاء هو الكثرة الغالبة ، بحيث أسدل ستاراً كثيفاً على النوع الثاني ، والذي يمكن أن نختلف اليه باطمئنان كما سنرى ، لذا أعطى انطباعاً سيئاً عن طبيعة شعر الهجاء وأدّى به الى عزلة ونفرة تكاد تكون عامة من قبل قراء الشعر ومحبّيه .

أما المؤثر الثاني ، فهو مؤثر اللحظة الساكنة المتأمّلة الباحثة عما يُيسّر لشعرها الجدة والاصالة ، والشعراء الذين يمثلون هذه الوجهة انما هم شعراء مغلوبون على أمرهم ، فشلوا في أن يقفوا موقف التحدي أمام خصومهم لضآلة ما بأيديهم من أسلحة وأدوات فانطووا في عزلة يهاجمون خصومهم بهدوء وتأمّل وتفكير ورغم جبنهم الا أنك تحس بحرارة شعورهم وصدق تأمّلاتهم ، وما أصدق هجاء ابن الرومي أحياناً تعبيراً عن هـذا الجانب فأنت انْ قرأتَ هجاءَه تحسّ بسخريته من المهجو في لفظ بعيد عما يخجل ويؤلم ، ومع ذلك فأمام سخريته تحسّ بالمرارة من هذا الشاعر الذي لم يعد يملك الا لسانه ، وقد تهيأ لابن الرومي من هدوء خارجيّ مبطن بثورة داخلية ومن ضآلة شخصية ما يجعله أكثر تقبلاً لأضافة عنصري التجويد والاصالة في هجائه ، وليس معنى ذلك أنّ اندفاع الشاعر وتفجّر غضبه واثارة شعوره يحدّ من الجوانب الفنية أو الأصيلة في شعره ، فبالاضافة الى أنه قد يحقق ذلك فعلاً أحياناً الا انه لا يني في الأعمّ الأغلب يثير غباراً كثيفاً أمام عينيه يحجب عنه ما يوفره له الهدوء من تأمّل وتبصرّ وتجويد ..

ما يقدمه لنا شعر الهجاء

الآن يمكننا أن نطرح السؤال الآتي ماذا يمكن أن يقدّم لنا شعر الهجاء ..؟ والاجابة على ذلك تأخذ سبلاً متباينة ، فبالاضافة الى ما يقدّمه من مادة تاريخية تعين الدارس والباحث كما أشرنا ، نجد ثمة قيماً أخرى لا تقلّ عنها غناءً وخطراً ، منها محاولة الكشف عن ذات الشاعر وفق دراسة سايكلوجية ترفد الباحث بمادة خصبة في محاولة لمعرفة شخصية الشاعر واتجاهاته الشعرية ... نستطيع ان نستفهم عن طبيعة الاتجاه النفسي لشاعر معين ومدى انعكاس هذا الاتجاه في شخصيته ككل وما يستدعي ذلك من تأثير بيّن في مختلف جوانبه الشعرية ، وكمنطلق تطبيقي نضع هذين النموذجين في محاولةٍ للاستفادة من دراسة الهجاء في تفسير الاتجاه النفسي وما يخلّف من اتجاه عامّ في سير الشخصية الشاعرية ، فدارسو شخصيّة جرير من القدامى وحتى من المُحدَثين لا يكادون يتفقون حول وضع نمط محدد لشخصيته ووضع سمات واضحة تميزها ، فاكثرهم يزعم أنه كان ورعاً تقياً عاطفته الشخصيّة لا حدود لها ، ولكن لماذا هذا الاندفاع الطائش الذي لا يتقيد بعرف ديني أو عاطفي سمح في مجابهة الخصوم .. فلا نستطيع أن نفهم هذا الاندفاع ، الا اذا أكدنا على أنه شخصيّة فاقدة لكل مقومات المجد التي تؤهله لان يرفع رأسه بكبرياء (لضآلة شأن قبيلته كما تؤكد اكثر المصادر) . فذلك نقص واضـح في تكوين شخصيّة جرير سلوكياً وبيئياً ، ولكنه أمام الخصوم يفقد كل شيءٍ مقابل ألاّ يفقد لسانه ، لذا استطاع

أن يقف حتى النهاية في ساحة الصراع أما التفسيرات التي تذهب الى شدة ورعه وتدينه ففي رأينا أن لا صحة لها البتة ، استطعنا اذن عن طريق رصد هذا الاندفاع الهجائي أن نستفيد منه في تحديد جانب مهم من جوانب شخصيته ، وما أشد انطباق هذا التفسير على شاعر آخر خبيث اللسان سليطه ألا وهو بشّار بن برد فهو نموذج حيّ لشاعر تنطبق عليه كل سمات الوجودية البدائية ، حرية ممتدّة تسمح له بأن يطلق لسانه على الخلفاء ، ويمد يده على كل ما حرّمه دين وعرف وتقليد .

أما النموذج الآخر فهو لشاعر ، فقد روح الانتماء الى مجتمع لا يقبل لافراده في الظهور الاّ لمن ملك علوّ المحتد وروح الشجاعة ، أما الضعفاء الخانعون المهزوزو الاعصاب فلا مكان لهم فيه ، ويمكن لهجائه عند تتبعه وملاحظته الدقيقة أن يقدم لنا هذه الحقيقة ، فانّ موقفه ـ في رأينا ـ أمام مهجويه لم ينبع من سمة نظيره وتشاؤمه ، وانما هو ردّ حاسم وخائب في الوقت عينه على فشل تام وحقد مأسوي على شخوص لم يرَ فيهم ومن خلالهم الا مجتمعه ، وتفسير هجائه الساكن البعيد عن الثورة انما يفهم من طبيعة المرارة والألم أمام هؤلاء الذين هم من مجتمعه ألقوا في طريقه صدفة أو تعمد لقاءهم لكي يشفي ما في غليله من حقد على المجتمع ككلّ . ولا يمكن أن ننسى ما يرفدنا به شاعر الهجاء من نقد عام لمجتمعه وان اتخذ شكلاً خاصاً في شخص المهجوّ ، ولعلّ أفضل ما يرد من نقد بهذا الشأن ، ما يتناو شعر كل من الهاجي والمهجو فمن خلال هذه المادة نستطيع أن نكوّن حصيلة طيّبة عمّا خُفي علينا من اساليب وطرائق كل شاعر هذه ملاحظات هامّة يُمكننا استنباطها من خلال قراءتنا لشعر الهجاء وما أيسر على الباحث المُدقّق أن يستشف من خلال الابيات مفاهيم جديدة تُثري المادة الشعرية . وتغني التراث الشعري بعطاء ثرّ .

كلمة أخيرة

من كل ما تقدّم من عرض نخلص الى القول بأن التراثَ العربيَّ ، يستطيع أن يقبل الهجاء ، كما يستطيع أن يرفضه ، والحكم في ذلك انما يعود الى النماذج الجيدة التي يوفرها بعضُ من الهجاء الشخصي وكثير من الهجاء القبلي ، وبالنسبة الينا كقراء ينبغي أن نكون حذرين في تَقبُّل النموذجين من الوجهة الفنية ، على أن لا يمنع ذلك بالطبع من اضافة ما يقدّمانه من مادة تاريخية في تفسير الكثير من الظواهر والاتجاهات الشعرية . ونستطيع أن نقول بثقة بأنّ شعر الهجاء لا يُمكن أن ينفصل عن التراث الشعري بل هو جزء مكمل له من كل النواحي وان كان من الجانب الفني ضئيل القيمة وهو في الحالتين يحتاج الى صبر واناة شديدين في تتبعه ، اذ لانعدم أن نجد فيه من الصور الجميلة ومن الاشارات البارعة ما يهيىء لنا تقبلاً ورضىً .

آمل أن أكون قد جلوتُ صفحة مطمورة من جزء مهم من تراثنا الشعري وما أحوجَنا اليوم للبحث الدائب في حنايا هذا الفن المهمل فلعلّنا نستطيع أن نغيّر شيئاً من وجهه أمام قُرّائه ورافضيه .